

ورقة تمهيديّة للدّورة السادسة لملتقى الأنثروبولوجيا والموسيقى  
المركز الوطني للبحوث في عصور ما قبل التاريخ، علم الإنسان والتاريخ  
بوسعادة

29، 30 و31 جانفي 2108

التدوين الموسيقي ورهانات البحث : في دراسة وصيانة الموسيقى التقليدية المغاربيّة.

مثّل الترقيم الموسيقي عنصر اهتمام دائم للموسيقين والمنظرين والباحثين في علم موسيقى الشعوب (الانثوموسيقولوجيا أو أنثروبولوجيا الموسيقى)، في كلّ الأزمنة. فعلى غرار نظريّة "الأصابع والمجاري" التي صاغتها مدرسة العوديين، بداية من القرن الثامن ببغداد في عهد الدولة العباسيّة، أو نظريّة النحت الموسيقي للإيقاعات "تالا" في جنوب الهند في معبد ماناكشي بمادوراي، دأبت الحضارات القديمة في العالم على اعتماد صياغات إيكونوغرافيّة ومنظومات تدوين تهدف إلى حماية الأرصدة وتقنيات العزف والأداء وضمان تواصلها. إن نظام الترقيم الأوروبي للعزف على الآلة الموسيقيّة (tablature) الذي تمّ تطويره في عصر "النهضة" غاية تعليم صيغ الأداء لعدد من الآلات الموسيقيّة، منها "الأرغن" و"العود" ثم بعد مدّة آلة "القيثار"، خير دليل على ذلك.

تمثّل فنون صنع الآلات الموسيقيّة في كلّ حضارات العالم، عددا هائلا من الحلول والأجوبة والخيارات الطبيعيّة، لمقتضيات فنيّة وهيكلية في نفس الوقت، من حيث مادّة صنع الآلة (جلود، خشب، معدن) ودرجات الآلات الوترية وطول عنقها ومن حيث أنابيب آلات النفخ والمسافات بين ثقبها، وتفعل العديد من المهارات الجامعة بين الغناء والرقص والعزف والشعر والصناعة، لا تترك للصدفة محالا، في تناسق ضمني تتبناه المجموعة وتشيدّه أجيال من المهنيين.

ظهرت أولى الترقيمات الموسيقيّة في أوروبا خلال العصور الوسطى، ثمّ تطورت تدريجيّا لتحوّل إلى قراء تقترب من الاكتمال بالنسبة للموسيقى الأوروبيّة. كما اعتمد علم موسيقى الشعوب (الانثوموسيقولوجيا أو أنثروبولوجيا الموسيقى) هذه الكتابة بشكل واسع في وصف وتدوين وتحليل موسيقى العالم بكلّ ما تتضمّنه من طقوس وحفلات دينيّة وحفلات زواج ومهرجانات وتظاهرات أخرى. لكن الترقيم الموسيقي الأوروبي يبقى محدودا في ترجمة الموسيقى التقليدية. وتتفاقم الصعوبات خاصّة عندما يتعلّق الأمر بتحليل نظام رمزي بأكمله يتداخل فيه التصنيف والحركة والإصدارات الصوتيّة الدقيقة من حيث حيزها الزمني، والنصوص المغنّاة فرديّا وجماعيّا بكل ما تتضمّنه من

خصوصيات صوتية وإيقاعية، إضافة إلى الأداء الآلاقي والسلا لم الموسيقى والخطوات التي يرسمها قائد الحفل أثناء الرقصات الطقوسية، إلى غير ذلك...

انتشر استعمال الترقيم الموسيقي الغربي واعتمد بكثرة في شمال المنطقة المغاربية، دون التغاضي عن وسائل التبليغ التقليدية. هكذا تم تدوين وأداء الرصيد المعروف ب"المالوف الأندلسي" التونسي في كامل تراب البلاد التونسية منذ بداية القرن العشرين. أما بالنسبة لرصيد "الآلة" بالمغرب ورصيد "الصنعة" بالجزائر العاصمة وتلمسان، ورصيد "المالوف" بقسنطينة وليبيا، فإن الخطوة لم تنجز. فهل في هذا الاختيار تأخرا يتعين تداركه؟، أم إن في الأمر مسألة احترام مستوجب تجاه مقارنة الأداء الموسيقي، إذ قد يفضل الموسيقيون المغاربة ترجيح إلهام اللحظة، مثلما نجد ذلك في "الشعبي" وفي "الحوزي" وفي "الفلامنكو" وحتى في "الفادو"، على سبيل الذكر؟.

أما في ما يتعلق بالبحث، فإن الترقيم الموسيقي يمثل تمثيلا لا يمكن أن يستغنى عنه، ومنهجا يهدف إلى ترجمة خصوصيات رصيد ما، على أن يكون الغرض الأسمى هو تبليغ نتائج البحث الميداني إلى المجموعة العلمية.

توجد اليوم وسائل وتقنيات كفيلة بتقديم نتائج البحوث، بل إن أعمال باحثين مرموقين في علم موسيقى الشعوب (الانثوموسيقولوجيا أو أنتروبولوجيا الموسيقى) تؤكد ذلك وتشهد عليه. فماذا يمكن أن تكون إذا التقنيات التي يُستوجب تطويرها من طرف كل باحث لمواجهة التحديات التي يتعرض إليها، ومنها :

- أنساق التمثيل،
- الترقيم المحلي،
- الحركة والتعبير الجسدي،
- التقطيع والإيقاع في الشعر،
- اعتماد الترقيم الغربي وخصوصيات الشفوية،
- استعمال الأداة الإعلامية ووسائل الاتصال...

يطمح هذا اللقاء إلى جمع باحثين في علم موسيقى الشعوب، الانثوموسيقولوجيا / أنتروبولوجيا الموسيقى، وفي الأنثروبولوجيا، وفي أنتروبولوجيا الرقص، ومختصين في الأدب الشفوي، ولسانيين، وسيميائيين، ومؤرخين، ومؤرخي الفن، وعلماء آثار... إنها فرصة نأمل أن تسمح بأن

يتعرّف الجميع على مراكز اهتمام الآخرين. وهي مناسبة جديدة بأن توفر إمكانيّة العمل في المستقبل ولأمد طويل، على تدوين مهارتنا العريقة والمنظومات الرمزيّة التي تحتزلها.

إنّ المقاربات والمناهج المعتمدة من طرف المختصين كثيرة، كما أن أداة الإعلاميّة تقدّم إمكانيات ملفتة للانتباه، من خلال ما تحقّقه من دقّة في الاحتماب تتزايد باستمرار، لكنها تبقى في متناول البعض من المختصّين. فما هي الوسائل الأكثر ملائمة والكفيلة بتقديم قراءة ورؤيا للثقافة الموسيقية، في زمن التسابق نحو الحداثة، تمكّن الباحثين في كلّ الاختصاصات من تقديم الترجمة الوفيّة للتقاليد.؟

ماية سعيداني  
ترجمة محمّد قوجة